من جيل الى جيل

تقاليد وعادات صالحة يجب احياؤها

لحضرة صاحب المعالى عبد المجيد ابراهيم صالح بك

وزير المواصلات والتموين

اعتاد شبان هـذا العصر أن ينفروا من كلمة " التقاليد " حتى أصبحوا لا يذكرونها الا فى مواضع السخرية والاستخفاف . واعتادوا أن يستنكروا القديم ويتبرموا به حتى لا يتهموا بالرجعة فى زمن التحرر والتجديد .

ولست أدرى ما قد تحدثه كلمتى هذه من الأثر فى نفوس شبابنا ، ولكنى أرجو على أى حال ألا يروا فيها نزوعا إلى القديم بخيره وشره ، ولا إنكارا للتهذيب الذى أحدثه الزمن فى كثير من عاداتنا وتقاليدنا ، فصيرها أقرب إلى مقتضيات العصر وأكثر انطباقا على ما استحدثته المدنية فى حياتنا الاجتماعية .

ومهما يكن من الأمر فالتقاليد والعادات خاضعة لمؤثرات خارجة عن إرادتنا وآرائنا . وهى كالمعانى يستبق الزمن ما طاب منها ويحمله من جيل الى جيل ، أما الخبيث فيتخلف عن موكب الزمن ولا تبقى منه إلا الذكرى يتندر بها الشيوخ والمعمرون .

على أننا مهما تشبعنا بروح عصرنا وسلكنا فى الحياة مسلكا تمليه علينا طبيعة هذا العصر، لانستطيع أن ننكر ماضينا ولا أن نقطع ما بيننا وبينه من الصلات .

فالأمم تحيا بماضيها كما تحيا بحاضرها وتستمد من ذلك الماضى مقومات لهذا الحاضر . وبعد فهل حاضرنا إلا الماضى تناولته يد الزمن بالتعديل أو بالتهذيب ؟

وإذا ذكرنا الماضى انبعثت الى أذهاننا سلسلة من العادات والتقاليد منها الزى الذى لا تسمح عودته طبيعة المدنية الحاضرة ، ومنها المضحك الذى أسدلت عليه السنون ستار النسيان ، ومنها الطيب الذى يحسن أن نبعثه وأن نجدد فيه بما لا يتنافى مع جوهره ولا مع مقتضيات هذه الأيام .

وهذا النوع من تقاليدنا وعاداتنا القديمة الصالحة التى يحسن أن نحاول إحياءها هو الذى أريد أن أتحدث عنه الآن ، ويزيدنى رغبة فى التحدث عنه وحث المواطنين على إحيائه أن آثارا كثيرة منه لا تزال باقية ، وأن بعض الأسر العريقة فى القدم لا تزال ترعى شيئا منه وتحرص عليه .

خذ مثلا زعامة الأسرة ووحدتها .

كان للأسرة ، لما كانت لنا تقاليد ، وحدة تقيها شر التفكك والتفرقة ، وكان لها كبير يطاع . ولا يخفى ما في هذا النظام من ضمان هيبة العائلة . فقديما سئل أعرابي : "بماذا سادت قبيلتكم وأنتم أقل من غيركم عددا" فقال : "لأن لنا حكيما نطيعه ففينا بعدد أفرادنا حكماء . أما تلك القبائل فليس فيها من يسمع له رأى ، فهم ناس من غير آراء" .

وتذكرني وحدة الأسرة بنظام "الدوار" في الريف . ويؤلمني أن أرى هذا النظام سائرا في طريق الزوال .

في الدوار تجتمع الأسرة تحت زعامة عميدها والكبار الموقرين من رجالها ، يتشاورون في أمورهم ويتدبرون مشاكلهم ومشروعات مصاهراتهم ويتحسسون حال من نزلت به منهم نازلة أو حاقت به ضائقة فيدبرون الخطة ويتخيرون الوسيلة لإنقاذه ، ويقومون للضيف بواجب القرى والحفاوة ، أيا كان الزائر والمزور ، لأن المفروض أن ضيف الواحد منهم هو ضيف الجميع . وفي الدوار تقام أفراح الأسرة ومآتمها فلا يحار صاحب العرس أو المأتم في اختيار المكان الذي يقيم فيه سرادقه أو يؤوي فيه القادمين اليه من المدن أو من القرى النائية .

أما الآن فقد تغيرت الأحوال وهجر الأعيان قراهم واستمرءوا سكنى المدن ونقلوا إليها أنفس مقتنياتهم وأفخر فرشهم وأنظف خدمهم ، وبقي الدوار مهملا مهجورا يعشش فيه البوم وترتع الفيران ويكاد يحدثك عن العز السالف والمجد القديم ويشكو لك كيف انحلت الروابط وتفككت الأواصر وزالت الوحدة وتفرقت الكلمة واختلفت المشارب وتبدد شمل العائلات .

نعم إن مقتضيات الحياة الحديثة يفرض على البعض منا أن يقيم في المدن التي تتوافر فيها ما لا يتوافر في القرى من كليات الجامعة والمدارس الثانوية والمستشفيات وكبار الأطباء . ولكن ما ضر هذا البعض لو أنهم يجعلون لمسقط رأسهم نصيبا من عنايتهم ومن أيامهم فيقضوا بها أسبوعا من الشهر أو ما تسمح به أعمالهم من أيام الشهر ؟ أليسوا ، إن فعلوا ، يستبقون شوكة الأسرة بين العشائر ويستديمون صلة مودتهم بالأهل والجيران ويجدون من حفاوة الناس بهم ولجوئهم اليهم وإكبارهم شأنهم ما لا يجدون بعضه في المدن ؟

ويوحي إلى ذهني ذكر المآتم والأفراح تقليدا طيبا عصفت به ريح الفرنجة التي طغت على عاداتنا الكريمة فلا نكاد نسمع به أو نراه إلا قليلا . ذلك التقليد الطيب هو تلك المعاونة التي كان صاحب المأتم يلقاها من وجهاء قريته إذ كانوا ينصبون موائدهم في دار المتوفى ويدعون إليها المعزين الوافدين من البلاد البعيدة ثم يهيئون حجرات النوم في بيوتهم حتى اذا أقبل الليل دعوا أولئك المعزين الغرباء اليها . وهكذا يجد صاحب المأتم من أصدقائه وجيرانه في البلدة

معاونة كريمة تخفف عنه كثيرا من الأعباء وغير قليل من النفقات . فأين هذا مما نراه اليوم إذ أصبح المأتم موتا وخراب ديار لا يتاق فيما المحزون سوى كلمات تعزية محفوظة وعبارات مجاملة مألوفة وكلها لا ينفع ولا تفيد ؟

حقا إن من الأسر من لا يزال يحتفظ بنظام الدوار ، ولكن وجاهته وصيفته وزعامة الأسرة فيه وسنة التعاون في الأفراح وفي المآتم وفي الديون والأزمات ، كل هذا لم يبق منه إلا آثار وذكريات . وتلك الفضائل كلها تسير اليوم في طريق الانقراض . فصار كبير الأسرة غير مطاع ولا مستشار ، وطغى زهو الشباب على ما كان سائدا من توقير الشيوخ ، ولم يبق من الضيافة ومظاهر الكرم القديم إلا موائد يتورط العين أو العمدة في إقامتها للحكام ، وأصبح المدين من أفراد الأسرة لا يجد العون ولا القرض الحسن من عشيرته ولا من جيرته بل يهرول الى البنوك والمرابين ، وأصبح يحمل وحده أعباء عرسه ومأتمه وضيوفه . بل كثير ما سمعت من موظفين كبار ندبوا أعضاء لجان الانتخاب التي كان مقرها مدرسة إلزامية أو محكمة أو أي مكان غير بيت العمدة أنهم لم يجدوا مكانا يبيتون فيه ولم يدعهم أحد الى طعام فاضطروا الى شراء ما تيسر من طعام السوق والى الذهاب الى أقرب مدينة ليجدوا مكانا للنوم ثم عادوا آسفين على ما أصاب الكرم الريفي وتقاليد الأسر الكريمة من وهن بل من زوال .

ولعل من أحب تقاليدنا القديمة إلى نفسي ما كان متبعا في الأسر الكبيرة بالنسبة للمرأة .

وموضوع المرأة موضوع شائك يجب أن نمر عليه حذرين محترسين حتى لا تدمى أقدامنا الأشواك . ولكني أزعم أن الأسرة كانت تنظر إلى المرأة فيما مضى نظرة أسمى وأعظم من نظرتنا إليها الآن .

ولقد شاع ظلما إننا كنا نحبس المرأة في سجن البيت ونحرمها الضوء والحياة ، وأننا كنا نبعدها عن متع العيش التي أحلها الله ونعاملها كما لو كانت متاعا من أمتعة البيت . وهذا التصوير ظالم كل الظلم ، لأن حجاب المرأة إنما جاء نتيجة لتدليلنا إياها ورغبتنا في تيسير أسباب الرفاهية والنعيم لها . لقد أردناها لتكون ملكة وجعلنا قلوبنا مقرا لعرشها ، فكانت ترعى هذه القلوب بحنانها كما كانت ترعى البيت بعقلها وذوقها . وهذه المعاملة لم تكن شائعة إلا في البيوتات الموفورة الغنى أو في البيئات الوسطى على حين لم يكن الفلاح البسيط يجد حرجا في أن تعمل امرأته وابنته في الحقل معه ، فكانت كلتاهما تخرج سافرة إذ لم يتوافر لها ولا لعائلها من أسباب الغنى ما يسمح لها بالاحتجاب والانقطاع لخدمة البيت والأولاد .

وليس من شك في أن معاملة المرأة على هذا النحو أسمى وأعظم من معاملتنا لها اليوم : لقد كانت ملكة فأزلناها عن عرشها وصارت من الرعية .

ولكن هل من المستطاع أن نعود اليوم بالمرأة الى ما كانت عليه ؟ كلا ! وعلى ذلك فإن هذا التقليد القديم لا نستطيع إحياءه إلا إذا عدلناه وجعلناه ملائما لتطورات الأحوال .

فلتكن المرأة للبيت تديره وتسكب عليه فيضا من وقتها وحنانها ، وليكن لها من السفور ما لا يتنافى مع الخلق والدين بحيث يمكّنها من أن تتمتع بكل ما أحله لها الله . والمرأة تستطيع أن تتمتع بكل حلال دون أن تنساق من جراء الاختلاط الى مواطن الشبه ومخاطر الزلل والرجل يستطيع أن يوفر لزوجته كل المتع دون أن يشركها معه فى الجلوس الى موائد الخمر والميسر ودون أن يعرضها للمفاسد والمغريات ومتى تحقق هذا عادت الأسرة الى ما كانت عليه فى الماضى من توثق الروابط والثقة المتبادلة والترفع عن التبرج الممقوت .

وكان من تقاليد الأسر تبكير الشبان بالزواج إذ لم يكن المجال منفسحا أمامهم للتعزى عن الزواج بغيره ، ولم يكن من الصعب عليهم وجود الزوجة الصالحة فى أوساطهم . وهنا أدع للفكر أن يوازن بين هذه الحالة و بين حالة شبابنا فى هذه الأيام . وما أظن أن أحدا يشك فى أن التبكير بالزواج يستتبع حتما خلق نسل قوى . والنسل فى أمتنا ضعيف وقد جاء هذا الضعف نتيجة لتردد الشاب فى الزواج وانتهائه من هذا التردد بعد أن يكون قد جاز مرحلة الفتوة الى سن الكهولة . وما تردده إلا لأنه يرى من عيوب المجتمع ما يحمله على الإرجاء والتسويف .

ومن تقاليدنا التى نسيناها اتباع الفرد حرفة أبيه فلقد كان الرجل فيما مضى يحرص على أن يكون له من أبنائه من يخلفه فى حرفته . فكان التاجر يتمنى أن يعيش حتى يرى ابنه يحتل مكانه فى الدكان ، والصانع يودّ لو يمتد به الأجل ليدرب ابنه على صناعته حتى يحذقها كما حذقها هو ، والزارع يرجو أن يجد من أولاده من يعنى بعده بشؤون الحقل والعزبة ، والعالم يجتهد فى أن يربى ابنه تربية أزهرية حتى يظل بيت العلم مفتوحا من بعده .

ولهذا لم يكن ثمة تهافت على الوظائف الحكومية ، بل إن بعض الأسر كان يرى فى توظيف أبنائه جرحا للكرامة . وهذه مغالاة بلا شك ولكنها مغالاة ما أحوجنا إلى شىء منها اليوم .

و يقضى أن الأخذ بهذا التقليد فيه ضمان لإحياء صناعات واستبقاء متاجر وازدهار حرف وفتح بيوت وتنويع زراعات واستثمار أرض و إنماء ثروات ، وفيه إلى جانب كل ذلك إكثار من الأيدى العاملة المتحررة من قيود الوظيفة وتنمية لملكات الابتكار وفضيلة الاعتماد على النفس والاعتزاز بما ترك الآباء والأجداد .

أجل . فإنى أعرف كثيرا من الشبان خلف لهم آباؤهم ثروات ضخمة ، وكان هؤلاء الاباء يحترفون حرفا محلية تدر عليهم أرباحا وافرة كالجزارة والنجارة وأعمال المقاولات ، فلم يكد التراب يواريهم حتى تمرد أبناؤهم على حرفهم وتهافتوا على وظائف لا تكاد تقوم بأودهم

فدفعوا ثمن هذا التمرد غاليا إذ باعوا ما خلفت لهم الجزارة أو النجارة أو الصياغة أو المقاولات في سبيل التظاهر بالأناقة والرشاقة ثم لم يجدوا في الوظيفة ما يحقق أطماعهم فباعوا بخسران مبين .

ولقد كان من أظهر مزايا الجيل الماضي ، وبخاصة في الريف ، صدق عاطفة البر في قلوب الناس أو حرص الناس على الظهور في مظهر البررة المتقين ، فكان إكرام الوفادة وإكرام المثوى سنة لا يحيد عنها أصحاب البيوتات ولا متوسطو الحال . وكان الغريب والفقير وعابر السبيل يجدون المأوى والطعام ليوم أو لأيام فلا يضيق بهم صاحب الدار ولا يتبرم بهم أحد . أما الآن وقد حلت المقاهي والمشارب محل " السلاملك " القديم فأين يجد الغريب كنفا أو ملاذا ؟ وكان التغافل عن إيتاء الزكاة وبذل الصدقات في العيد عارا أي عار يتحاشاه الأغنياء خشية من الله أو خشية من ألسنة الناس ، وها قد غفل الناس عن الاحتفاظ بتلك المظاهر التي كانوا يبتغون بها وجه الله أو وجه العباد فكادت فريضة الزكاة أن تختفي دون أن يحظى اختفاؤها حتى بعبارات تنم على الأسف ويتبادلها الناس في مجالسهم .

ولم يكن البر الفني مقصورا على الإحسان وتوزيع الصدقات في المواسم والأعياد بل تعداه الى دائرة أوسع فكان إحسانا بالأعمال والمنشآت . وليس أدل على ذلك من هذه المساجد الكثيرة المبثوثة في القرى والكفور بناها أصحابها حبا للخير وزلفى الى الله . ولست أدعو قومي الى الاستزادة من المساجد والزوايا الا فيما تدعو الضرورة اليه ، فلقد وجد للاحسان صور أخرى تنطوي تحت تعبير "الخدمات الاجتماعية" وترمي الى معاونة الطبقات الفقيرة وتحسين حال الشعب ورفع مستواه جملة بدلا من معالجة بعض الحالات الفردية .

وبعد فهذه أمثلة من تقاليدنا وعاداتنا أدعو الى إحيائها وإدخال ما نراه ضروريا عليها مما يقتضيه تطور العصر . ولا يطيب لي أن أردد في هذا المقام ما قاله أحد المفكرين الفرنسيين وهو " إن في التمسك بالتقاليد ضررا يساوي الضرر الذي ينشأ عن إهمالها " ومعنى ذلك أن يذكر الشعب تقاليده ليأخذ منها ما ينفع ويدع ما لا ينفع . فتقاليد الأمم هي كرمتها ، هي كبرياؤها . هي تاريخها الذي يجب أن تحرص عليه لأنه جواز مرورها الى التقدم ، ونحن نريد لأمتنا أن تتقدم .

عبد المجيد ابراهيم صالح